المهدي المنجرة : أينما وجدتم من يشجع البحث العلمي ويحترمه فثمة بلادكم

عالم المستقبليات يرجع هجرة الأدمغة إلى التخلف وقصور الدولة عن استرجاع كفاءاتها

عندما تحاور د. "المهدي المنجرة" عالم المستقبليات وركن من أركان الفكر المغربي حول ظاهرة هجرة الأدمغة المغربية إلى الخارج، فإنك تستشف من حديثه مرارة المجرب والمتحسر على نزيف الكفاءات الذي يتسرب من بلادنا دون توقف. المنجرة الذي عاش تجربة الهجرة في العديد من بلدان العالم، واشتغل كثيرا على موضوع هجرة الأدمغة، يرى أن تقديس الجهل داخل بلدان العالم الثالث هو ما يدفع بكفاءاته إلى الهجرة والابتعاد، وأن الاستمرار في "الجهلو قراطية" هو ما يدفع بهؤلاء إذا ما عادوا إلى بلدانهم إلى الرجوع من جديد إلى المهجر بدون رجعة... في حوارنا هذا يقدم الباحث الجليل أمثلة حية عن الظاهرة في بلدان أخرى، وعن الكيفية التي واجهت بها هذه الدول نزيفها، وكيف توفقت في ذلك. ويتأسف نهاية حين يقول إنه توقف عن دعوة العلماء المغاربة إلى الرجوع، ويقول لهم "حيثما وجدتم من يشجع ويحترم البحث العلمي فثمة بلادكم"...

● كيف يرى د. المهدي المنجرة ظاهرة هجرة العقول من منظوره؟

● **منذ قرابة 35 سنة صدر تقرير للأمم المتحدة، كانت خلاصته بسيطة جدا، وهي أن أسباب هجرة الأدمغة من العالم الثالث تتجلى في عدم وجود الحد الأدنى من الوسائل والمناخ والأرضية المناسبة للبحث العلمي. ومنذ سنة 1968 أجريت عدة دراسات تفرز خلاصاتها دائما أن هجرة الأدمغة لا علاقة لها بالعامل المادي. من يهاجر من كفاءاتنا لا يهاجر لأجل الإغراء المادي، الأسباب هي البحث عن وسائل البحث العلمي، ثم البحث عن حرية التعبير. وأنا شخصيا تفد إلي ما بين 600 إلى 800 رسالة إلكترونية لشبان وشابات مغاربة في الخارج يتساءلون بخصوص رجوعهم. سأعطيك مثالا آخر، منذ سنتين كون خريجو المدارس الكبرى في فرنسا جمعية ثقافية، وعندما ذهبت إلى باريس كنت أول مدعو إلى هذه الجمعية، فوجدت أنه خلال الأربع سنوات الأخيرة لم يرجع مغربي واحد إلى البلد ممن تخرجوا من مدرسة "البوليتكنيك" الفرنسية، ولا واحد، لماذا لانعدام الوسائل في المغرب...**

● وكيف تقرؤون كل هذه المعطيات التي عاينتموها بأنفسكم؟

● **القراءة واحدة، وهي أن التخلف هو محاربة الكفاءة، إداراتنا يحتلها أشخاص لسنوات وعقود وأجيال، لا يعيدون فتح وقراءة الكتاب بمجرد جلوسهم على كراسي مناصبهم، آفاقهم ضيقة وتزداد ضيقا، والشباب المغربي الحامل للكفاءة، التي يمكن أن تسير بالبلاد قدما، يجد التجاهل.**

● وهل هناك أسباب خفية أخرى؟

● **عندما نقول محاربة الكفاءة، فإن العلم والمعرفة عند المسيرين في المغرب هو في آخر مقام... هم يجدون راحتهم في الجهل، بل هناك شيء إيجابي في الجهل هو كوننا نعيش في "الجهلوقراطية" عوض أن نحارب الجهل، نستغله كطريقة للحكم، وإذا لم تكن جاهلا في المغرب لن تكون لديك مؤسسات لتسيرها. والكفاءة لا تستطيع أن تشتغل لمفردها وبمعزل عن الجماعة، هي بحاجة إلى بيئة من الكفاءة، كيف يمكن لكفاءاتنا أن تتصرف داخل بلاد تفوق نسبة الأمية فيها 55 في المائة، فالأمية تضغط على المعرفة كنتيجة حتمية.**

● هل كل ما ذكرتموه يمنح عقولنا وأدمغتنا العذر لتهاجر البلاد باتجاه الغرب دون رجعة؟

● **على الأقل، أنا منذ أكثر من 15 سنة وأنا أحارب هجرة الأدمغة، وأسديت النصح للخبراء والخبيرات المغربيات ليعودوا ويخدموا بلادهم، لكن 80 في المائة عندما يغادرون مناصبهم العالية والحيوية في الكليات والمختبرات ويتوجهون للخارج قصد البحث العلمي، ثم يعودون لأسباب عائلية أو وطنية، يحسون بالذل والإهانة في عقر دارهم، ثم لا يلبثون أن يعيدوا حزم أمتعتهم ويعودون من حيث أتوا، ولكن هذه المرة بدون رجعة... الظاهرة للأسف ليست داء سنبحث له عن دواء في الصيدلية، هي معضلة تقديس التخلف.**

● وهل تقديس التخلف الذي ذكرتموه وليد اليوم فقط؟

● **على الأقل في جيلنا كان هناك احترام وتقديس من طرف الطلبة للعلم والعالم والأستاذ. القيم القديمة اندثرت الآن، للأسف قيمنا الآن نخرها استلاب حضاري وثقافي مخيف. أنا أتحدى أي أحد أن لا يجد عشرة خبراء مغاربة أكفأ من أي خبير أجنبي يأتي إلى بلادنا عن طريق الأمم المتحدة والتعاون الثنائي. التعاون والمساعدة الفنية كذب وضحك على الذقون، أنا أومن بالتعاون، لكن هناك منطق القرب، الأقرب فالأقرب، لدينا كفاءاتنا لماذا أحضر أوربيا أو أجنبيا؟ وما قلته عن الخبراء الأجانب أقوله عن المسؤولين العتيدين في إداراتنا. ليست لدينا استراتيجية تنموية للأسف، هذه أزمة خلقية وأزمة مصداقية. جزء من نخبتنا لا يسدي أي خدمة للدوران بعجلة التنمية في البلاد بل يخدم مصالحه الخاصة ولا يبالي بالباقي.**

● وهل الظاهرة حكر علينا نحن فقط أم تشكو منها بلدان أخرى بالدرجة نفسها؟

● **لا، ففي كندا، وجد أن جزءا كبيرا من الأطباء الكنديين يهاجرون باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية... البرلمان الكندي قام بدراسة، ووجد أن فرق مدخول الطبيب في كندا والولايات المتحدة الأمريكية فرق كبير، علما أنه في كندا أعلى بكثير، وفي المقابل مستوى الحياة في أمريكا أغلى، فكانت خلاصة الدراسة أن أمريكا لديها ميزة عالية في ميدان الطب، بتوفير إمكانيات ووسائل للبحث العلمي في مستشفياتها بشكل أقوى بكثير مما هو عليه في كندا... فقام برلمان كندا على إثرها بمضاعفة مستوى البحث العلمي في الطب، فكانت النتائج أن توقفت هجرة الأدمغة في هذا الميدان. والهنود مثلا شكلوا من "سيليكون فالي" مدينة علمية تنبض بوجودهم، ليس كمثل "تيكنو بارك" المهزلة التي عندنا في المغرب، بعض العقول الهندية تعطي الآن منحا للمدارس الابتدائية التي درست فيها في الهند... وهذا لأنه كانت هناك إرادة سياسية لاستعمال الكفاءة العلمية الهندية خارج الهند ولما أعطت أكلها وأبانت عن مصداقيتها أدخلت أموالا كثيرة إلى بلدانهم، فأصبح مدخول الهند من العملة الصعبة مضاعفا في مدة قليلة.**

وأنا عشت شخصيا مثالا حيا آخر عندما كنت مع نادي روما، وهو مثال خوان كارلوس ملك اسبانيا، لما تولى العرش وولى النظام الدكتاتوري لفرانكو، تساءل عن الكفاءات والأدمغة الاسبانية الموجودة في أمريكا في مجالات عديدة، فأرسل من اسبانيا لجنة مختصة تضم اختصاصيين ورؤساء جامعات إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليكتشفوا حقيقة الأمر مع الخبراء والأدمغة الإسبان هناك. وكانت رسالة الملك إليهم أن منحهم تذاكر لهم ولعائلاتهم للعودة إلى الوطن اسبانيا، وأعطاهم ضمانات في أي وقت أرادوا الرجوع أن يفعلوا دون أي مشكل أو عرقلة، وكل وسائل البحث العلمي التي يشتغلون بها في أمريكا سيوفرها لهم في اسبانيا، وضمن لهم حرية التعبير التامة، ثم احتفظ بأجورهم التي يتقاضونها هناك... هذا عشته بنفسي، وقبل متم السنة جاء وفد من الاسبانيين العلماء في أمريكا ورغبوا في مقابلة الملك، وقالوا له إنه لا يمكن وهم مواطنون اسبانيون أن يتقاضوا بعد عودتهم إلى اسبانيا ضعف الأجور التي يتقاضاها زملاؤهم الاسبانيون، فطلبوا منه طلبا واحدا هو توحيد الأجور. وهذا برهان واقعي آخر أن الهاجس المادي لا وجود له عند الأدمغة المهاجرة، والدليل أن هؤلاء عادوا وقبلوا بأجور أقل مما كانوا يتقاضونها... وبرهان آخر أن الدول التي تحترم عقولها وتحترم العلم تسعى لاستعادة كفاءاتها بأي طريقة.

> ملك اسبانيا سهر بنفسه على عودة كفاءات بلده بالضمانات التي تريدها

● وما هي في تقديركم أكثر التخصصات والبلدان التي تستنزف أدمغة وكفاءات من بلادنا؟

● **أولا وانطلاقا من الميدان الذي أشتغل عليه منذ 30 سنة، فالريادة لميدان الاتصال والمعلوميات والتواصل التقني والميدان الآخر هو العلوم الطبية والاختصاصات البيولوجية والهندسة الجينية، وبعض الميادين الهندسية الأخرى، أيضا بعض التخصصات في علوم الاجتماع مثل اللسانيات والسوسيولوجيا وعلم المجتمع وعلم النفس السيكولوجي. أما عن البلدان، فإن وجود المهاجر المغربي في كندا مرحلة انتقالية تمهد لهجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ألمانيا أيضا تستقطب طلبتنا وعقولنا، يوجد بها حاليا أكثر من 5000 طالب مغربي على مستوى عال، إيطاليا أيضا تفتح أبوابها لنا لولا مشكل اللغة.**



الذكتور المهدي المنجرة

● يجمعكم باليابان حنين خاص وحب كبير لهذا البلد، أعربتم عنه في العديد من كتاباتكم، ألم يغركم هذا الحب بالاستقرار فيه؟

● **عدد الطلبة المغاربة المسجلين في اليابان يتزايد سنة بعد سنة والحمد لله، ولم ولن تري أي واحد منهم فاشلا، كلهم يشغلون مناصب عليا، ومنهم الآن من وصل إلى أساتذة جامعيين في جامعات يابانية، وعددهم أربعة أو خمسة. وهذا ليس حكرا على اليابان وحدها بل الوجود العلمي المغربي مشرف في بلدان أخرى مثل أمريكا اللاتينية، وهؤلاء هم سفراؤنا الحقيقيون... مع الأسف هؤلاء كنز يحسن الأجنبي استغلاله، وعندما يعودون إلى بلدانهم يهانون ويحتقرون.**

● ما هو خطابك الآن للعقول المغربية؟

● **أنا منذ سنة 1968 وأنا أحارب ظاهرة هجرة الأدمغة وأشجع المغاربة في الخارج للعودة إلى بلدانهم بأي ثمن كان، وأن يواجهوا ويصبروا على كل الظروف التي يمكن أن تحبطهم داخل المغرب... كان هذا خطابي منذ سنوات، الآن مللت هذا الكلام، وجوابي واحد هو "أينما وجدتم من يشجع البحث العلمي والخلق والإبداع فثمة بلدكم..." وسيظل هذا خطابي ما دامت بلادنا هكذا، وعندما تتغير ساعتها نغير خطابنا نحن أيضا.**

أجرت الحوار : سهام فوزي

طبيب معالج من المخدرات رفض عروض جامعة أمريكية وفضل مستشفى الرازي بسلا

جلال توفيق، أستاذ بكلية الطب والصيدلة بالرباط وطبيب نفساني بالمركز الوطني للوقاية والبحث في الإدمان على المخدرات بسلا، ومختص في العلاج من المخدرات بمستشفى الرازي للأمراض العقلية والنفسية بسلا، ومؤسس الجامعة العربية للوقاية من المخدرات. تملأ جدران مكتبه بالمستشفى دبلومات وشهادات وجوائز وأوسمة تشريفية من مجموعة من البلدان عبر العالم، من جامعات أمريكية، وجامعات نمساوية ومؤسسات دولية... لم تكن محطته داخل هذا المستشفى هي الأخيرة بل سبقتها محطات عديدة في بلدان المهجر. لم تثنه عن التفكير في العودة مجددا إلى المغرب ليمارس اختصاصا لا زال غير منتشر بما فيه الكفاية، دون أن ينسى أن المناخ لا يخلو من محبطات، وأن قطاع الطب في المغرب لا يشجع الطبيب على الاستمرار في الاشتغال فيه بواسطة جملة من العراقيل والحواجز.

يقول جلال توفيق : " حاولت الكثير من هذه الدول استقطابي للعمل معها، حيث عرضت علي 3 مؤسسات أمريكية خدماتها، وكذلك جامعة جون هوبكنز التي تصنف من أكبر وأحسن الجامعات في العالم، اقترحت علي إبرام عقدة معها، والمعهد العالمي لسياسة الوقاية من الإدمان على الكحول عرض علي الشيء نفسه، وكذلك الأمر مع مؤسسات أخرى لمكافحة المخدرات. إلا أنني في النهاية لم أقبل أي واحد من هذه العروض". د. توفيق رفض هذه العروض لأسباب شخصية وموضوعية: فالظروف الشخصية تتمثل في وجود ابنه في المغرب، وهو ما صنفه من أولوياته في الحياة يقول :"الكثيرون ينسون أن الحياة عابرة ومارة وهناك أمور أهم وهي العائلة. هذا من جهة، من جهة ثانية عندما يتمتع المرء بقدر لا بأس به من عوامل الرضى إما نفسية أو اجتماعية أو مهنية لا يغره الذهاب إلى الخارج".

بالمقابل لم يجد الدكتور جلال توفيق، ما يرضيه مهنيا داخل بلده وفي تخصصه، وهو اختيار تتمحور عليه جميع الاختيارات ويفرز مقاربتين، الأولى سطحية وهي توفر شروطا أحسن للعمل هناك وجودة الحياة أيضا، وهذه مقاربة مقارنة. المقاربة الثانية أعمق، وهي الاقتناع بتحمل المسؤولية تجاه الوطن، وهي مسؤولية لا ينتظر منها بالضرورة مقابل مادي... يقول "الوطن يجب أن نعطيه نحن أولا لا أن يعطينا هو ثم نعطيه نحن بعد ذلك، وبلادنا محتاجة لأطر في هذا الاختصاص رغم أنني أشتغل في الظل". ويعتب توفيق على عدم تقديس المواطن المغربي للواجب الوطني وللافتخار بالوطن.

يتأسف د. جلال توفيق أيضا كون ميزانية البحث العلمي من أهزل الميزانيات، وظروف التطبيب والعمل الطبي رديئة جدا، وأن هناك أسباب اقتصادية تدفع الطبيب إلى الهجرة :"الطالب الطبيب الذي أمضى باكالوريا+ (10 أو 12) سنة، ثم يرمى به في قرية نائية بمرتب هزيل، هذه ظروف لا يمكنه الاشتغال في ظلها. والتفكير في الهجرة مشروع في هذه الحالات".

س . ف

أطر بشهادات عليا ووظائف قارة في بحث عن الاغتراب

قد يبدو أمرا طبيعيا مصادفة أشخاص عاطلين عن العمل، بصرف النظر عن مستوى تكوينهم العلمي، وهم لا يترددون في تبني أية محاولة للبحث عما فقدوه في أرض الوطن من مناصب شغل برقعة أخرى من بقاع العالم، إنما ما يثير إلى حد ما بعض التساؤل والاستغراب أحيانا هو اكتشاف أناس بشهادات تثبت كفاءاتهم المعرفية العالية، والأكثر من هذا بوظائف قارة ومدخول ثابت، يسعون جاهدين بدورهم إلى نهج ما أسماه بعضهم بالبحث عن الخلاص. ورغم ما أفادت به العديد من التصريحات في هذا الجانب، فإن الأكيد أنها لم تكشف عن جميع الأسرار التي تكمن وراء اعتناق تلك الأفكار، رغم إتاحتها لإمكانية الوقوف على نتيجة تقريبية، وهي أنه مهما كان وضع المواطن بقدر من الرقي والتحسن، لا يرى فيه مجالا للمقارنة مع ما يمكن أن يحصل عليه في بلد آخر يعلو مستوى تقدمه على مستوى بلدنا من امتيازات.

وفي تصريح لأحد الأطر البنكية المتخصصة في الإعلاميات، ويدعى نجيب ساجد (37 سنة)، تأكيد على ما سبق ذكره، فبعد أن أكمل تعليمه، كما يقول، كانت مراميه ذات أبعاد لا متناهية، وذلك بحكم ما بذله من جهد فكري عملي إضافة إلى التكاليف الباهظة التي تحملتها أسرته، علاوة على السنين الطويلة التي تطلبها التكوين والتخصص، غير أن ما تأكد له عقب ذلك هو ضرورة القبول بمنصبه الحالي، لا لشيء سوى لتجنب العطالة، وهو أمر يتحسر عليه الإطار البنكي بشدة بالقول "منصبي الآن بهذا المصرف بعيد جدا عن ما يليق بقيمة الديبلوم المحصل عليه، لكن وبطبيعة المنطق المتبع عندنا في مجال التوظيف، لا يمكنك بل لا يحق لك أن تناقش مثل تلك الأمور وإلا اعتبرت بسرعة البرق شخصا غير مرغوب فيه"، وأمام هذا الوضع الذي يعتبره نجيب مساسا بقدراته وتحطيما لطموحاته، يستغرب بابتسامة معبرة لسؤال طرح عليه حول إمكانية هجرته، إن أتيحت له الفرصة لذلك "هذا شأن لا مجال للخوض فيه ومحسوم في أمره، ليس بالنسبة لي شخصيا، ولكن أؤكد لك أن الفكرة تراود الكثير من أمثالي، وما الرضى بمثل هذا الوضع إلا بدافع الأمل الذي يسكننا من أجل تحسينه، ولو أن الخطوة إلى الأمام لا يمكن أن تكون في بلد يكبل أرجل فعالياته بالأغلال". وفي موضوع آخر، اعترض أحد الصيادلة (عبد الجليل مرسلي 42 سنة) عن استعداده لتحمل المزيد من التضحيات، مشيرا إلى أن من الأخطاء التي ارتكبها في حياته، هي تفكيره في إقامة مشروع بأرض الوطن، ولم يرجع ندمه ذلك إلى قلة المردود المادي أو شيء من ذلك القبيل، وإنما إلى ضعف الاهتمام الذي يلقاه الصيدلي عموما، وقد زاد من صدق تصوره، بحسب ما أفاد به، ما عاشه من تجربة في فرنسا أثناء دراسته "أؤكد أن العائد المادي ليس دائما المقياس الصائب للرضى عن وضع ما، بل هناك ما هو أهم منه، وأعني بالذكر عامل الإحساس بقيمتك كشخص له دور متميز، إذ وللأسف مشكلتنا تنبني أساسا على هذه القاعدة. صحيح أن هناك من المهنيين من يسيئون إلى القطاع وأصحابه، لكن عموما هذا لا يشفع لأن تعمم الفكرة، فمثلا أخيرا تعرضت وعاملتين عندي إلى هجوم كلامي خطير من أحد المواطنين، والسبب حرصنا على عدم مناولته بعض الأدوية لأنها تستوجب إذنا خطيا من الطبيب"، ويستأنف الصيدلي قوله، محملا المواطن سلبية عدم الوعي بمخاطر تلك المهنة وقيمتها أيضا "جهل الأشخاص بدورنا بالتحديد يجعله يضعنا على خط أفقي مع "العشابة" العشوائيين، وطبيعيا فهذه إهانة لا تحتمل، وإن عجز المجتمع على ترحيلها من معتقداتهم، فالأحرى أن نرحل نحن".

وقد أثيرت في السياق ذاته، بعض علامات الاستفهام حول دور الدولة في محاولة فعل ما من شأنه أن يضع أمثال أولئك الأشخاص أمام خيارات أخرى، فكان الجواب حاسما، وتردد على ألسنة الكثيرين بتعابير مختلفة، وإن كانت تجتمع حول فكرة الاقتناع بأنه ليس للمرء ما يطلبه من بلد يدري جيدا أوضاعه الاقتصادية ومستوى وعي وطريقة تفكير مسؤوليه، إذ يعتبر البعض أن كل من قرر انتظار تحسن الأمور من تلقاء ذاتها، سيكون قد بذل جهدا ضائعا.

مهدي غزال

تقني طيران يؤكد أن عدم اهتمام شركة الخطوط الملكية المغربية بكفاءاتها العالية حرض أزيد من 200 تقني طيران على الهجرة

"لم يهربوا من مواجهة المشاكل إنما هاجروا بحثا عن المكانة الحقيقية لكفاءاتهم التي لم تعرف الشركة كيف تدبرها وتسيرها"، بهذه العبارة علق أحد تقنيي الطيران بشركة الخطوط الملكية المغربية على هجرة ما يزيد عن 200 تقني طيران من أعلى الكفاءات إلى كندا وفرنسا وأستراليا وبريطانيا في ظرف لا يتعدى عشر سنوات. وزاد التقني، الذي أكد أنه يفكر هو أيضا في الهجرة، أن التقنيين المهاجرين "لم يهربوا من مواجهة المشاكل، ولكن أصابهم الإحباط وفضلوا أن يعانقوا الفرص والعروض المغرية التي تطاردهم أينما حلوا". واستدرك قائلا "لا أعني بالعروض المغرية الجانب المادي، ولكن هناك أشياء أخرى كان على الإدارة في شركة الخطوط الملكية المغربية أن تحسن تقديرها".

ولخص أحد أعضاء الجمعية المهنية لتقنيي الطيران بالشركة نفسها المشاكل التي يعيشها تقنيو الطيران في "الصراعات الاجتماعية التي لم تجد بعد نهايتها"، فمنذ عقدين، يقول، "اشتد الصراع بين الإدارة والتقنيين، وخاض هؤلاء إضرابات ووقفات احتجاجية ولا حياة لمن تنادي، وخلال كل هذه المدة ترأس الشركة أربعة أشخاص، لكن للأسف تبين للتقنيين أن الوجوه وحدها تتغير أما طريقة التسيير والتدبير فلم يتغير منها أي شيء".

هجرة تقنيي الطيران الذين تصرف الشركة الملكية المغربية ما يزيد عن 20 مليون سنتيم في التكوين العادي لكل واحد منهم كل سنة، "ليست هروبا من النضال أو من مواجهة المشاكل بقدر ما هو إحساس كبير بالإحباط" يسجل المصدر نفسه، ويتابع "كل الذين هاجروا والباقون أيضا كانوا يتطلعون إلى تغيير العقليات داخل الإدارة وانفتاحها على الكفاءات داخلها وبناء علاقة جيدة أساسها الشراكة لا علاقة عداوة، كل طرف فيها يتربص بالآخر، لكن الواقع حرض فيهم رغبة الابتعاد والبحث عن بديل يحسون معه بكرامتهم المهنية وبكفاءاتهم".

قد يجزم البعض ويبصم على أن الدافع الأساسي لهجرة تقنيي الطيران والربابنة إلى الضفة الأخرى يخرج من فكرة البحث عن تحسين المدخول المادي، لكن أحد أعضاء الجمعية المهنية لتقنيي الطيران يجزم بدوره بأنه "يجب أن نعرف أولا أن التقنيين العاملين في هذه الشركة من أعلى الكفاءات ومشهود لهم بذلك من طرف المنظومتين الأوربية والأمريكية، لكن افتقادهم لهذا الإحساس داخل بلدهم هو ما يجعل مشاعر الإحباط والتذمر تتناسل بدواخلهم بسرعة كبيرة، أما من يقول إن التقنيين يهاجرون بحثا عن الماديات فهو حتما مخطئ لأن الفرق طفيف بين المدخول المادي الذي يتقاضاه التقنيون في البلدان الأخرى وبين مدخولهم هنا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مستوى المعيشة في هذه البلدان. وأنا شخصيا زرت بعضهم في كندا وتحدثت معهم عن وضعيتهم فأكدوا لي أن الفرق طفيف بين مدخولهم في المغرب وفي كندا، أي أنهم لا يحققون أية قفزة نوعية في هذا الإطار، لكنهم يحققونها من الناحية الاعتبارية وهذا دليل قاطع على أن هجرة تقنيي الطيران المغاربة لا علاقة لها بتحسين المدخول المادي، بقدر ما هو بحث عن الإحساس بكفاءاتهم وطاقاتهم وإنسانيتهم".

وأكد المصدر نفسه أن تقنيي الطيران في الشركة الملكية المغربية يشعرون بأن كفاءاتهم مهدورة وغير مستغلة ويحسون بأن الإدارة لا تبحث إلا عن مص دمائهم ولا تقدر الكفاءات التي صنعتها هي نفسها وصرفت وتصرف ملايير الدراهم في تكوينهم وتكوينهم المستمر!! وهناك أسباب أخرى خارجة عن إطار الشركة تشجع أكثر الكفاءات المغربية في الشركة الملكية المغربية على الهجرة يلخصها، المصدر نفسه، في "الوضعية التي تعيشها البلاد من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية".

ضحى زين الدين



رسم كاريكاتوري لمجموعة من الأدمغة مجمعة في صندوق وتستعد لأخذ وجهتها من سويسرا إلى الولايات المتحدة.
(أرشيف)

الولايات المتحدة الأمريكية أول زبون عالمي لسوق "الأدمغة"

هجرة الأدمغة تؤجج الصراع شمال / جنوب والبنك العالمي يسن 200 مخطط قانون لتخفيف الظاهرة

هروب الأدمغة هو حكم على المجتمع بالانتهاء السلبي، نتيجة عواقب هذا الفعل على مكونات الاقتصاد المحلي من خلال التقليل المتواصل في الرصيد البشري المتوفر بالنسبة للأجيال القادمة واقتصادات بلدانها، إذ لا تساهم الاستثمارات التعليمية للبلدان النامية بشكل فوري في تنمية اقتصاداتها، فجل مواطنيها الأكثر تعليما يهاجرون إلى الخارج. وقد أظهرت إحصائيات قام بها كل من "وليام كارنتون" و"إنريكا ديتراجياش" وهما خبيرا عملة عالميان، أن عدد "الأدمغة" الموجودة ببلدان في طور النمو هو 2,7 في المائة بالهند و3 في المائة بالصين و7,5 في المائة بمصر و8 في المائة بجنوب إفريقيا و10في المائة بالفلبين و15 في المائة بكوريا و25 في المائة بإيران و26 في المائة بغانا وأخيرا 77 في المائة بجامايكا.

وتوضح هذه الاحصائيات الضعف الكبير الذي تعانيه هذه الدول من حيث وجود كفاءات عالية قادرة على النهوض باقتصاداتها، مما يؤجج الصراع "الشمال الجنوبي" حول استقطاب "الأدمغة". ومع ذلك فلا يجب أخذ هذه الاحصائيات المحبطة لدول العالم الثالث أساسا لحركة الادمغة في العالم، ففي دراسة ثانية قام بها الخبير العالمي "ماريو سربانتس" حول تطور المجتمع الارلندي باعتباره أكبر المجتمعات العالمية تنقلا وخاصة في الفتراة الصعبة، تبين أن الارلنديين استطاعوا التغلب على الاستنزاف الاجتماعي والمهني والعلمي الذي شهدته بلادهم خلال سنوات الثلاثينات والاربعينات من القرن الماضي، وهو ما يعرف بفترة الهجرات الكبرى لشعوب شمال أوربا وجنوبها نحو غربها وباتجاه أمريكا الشمالية. ليستعيدوا كفاءاتهم البشرية وخبراتهم العلمية من خلال تطوير قطاع الصناعة التكنولوجية، والتي دفعت بعدد كبير من المهاجرين الارلنديين إلى العودة إلى وطنهم الام بعدما توفرت لهم الفرص المهنية لممارسة نشاطاتهم الفكرية والتقنية، وأصبحوا يشكلون نصف أعداد الوافدين على إرلندا سنويا.

وكذلك الامر بالنسبة لكل من التيوان وكوريا اللتين استغلتا وجود أعداد كبيرة من رعاياها بالخارج وبالبلدان الاكثر تطورا من الناحية التكنولوجية، لتربطا شبكات تواصل عالمية تهتم بتطوير اقتصاداتهما وإفادة مجتمعيهما فكريا وعلميا وتكنولوجيا. وتتحمل البلدان التي تفر منها "أدمغتها" نحو آفاق جديدة في العادة مسؤولية هذا الفعل، ففي سنوات الستينات اختارت الهند تطوير التعليم العالي والبحث العلمي عوض الاهتمام بتحسين مستوى التعليم الاساسي والابتدائي، لتصبح الهند إلى جانب الفلبين من أهم البلدان المقبلة على طلبات التأشيرة من الولايات المتحدة الامريكية. فقد حولت العولمة والانفتاح على اقتصاد السوق هروب أو هجرة الادمغة نحو فضاءات أرحب تكنولوجيا وماديا، صناعة قائمة بذاتها تتزعمها الولايات المتحدة على المستوى العالمي وولايات الولايات فيما بينها لأخذ نصيب الاسد من هذه الكفاءات الوافدة على القطب الوحيد.

وأمام هذا الواقع تحاول بلدان كسنغفورة وماليزيا وكوريا الجنوبية، التقليل من حدة هجرات الادمغة من خلال تبسيط المساطر الادارية ومساعدة هذه الكفاءات على الاندماج العلمي، وكذلك الامر بالنسبة لبلدان متقدمة كاليابان وألمانيا والمملكة المتحدة، التي تحاول بدورها الحد من "شفط" الولايات المتحدة الامريكية لرصيدها من الكفاءات البشرية العالية التكوين. في حين تحاول الحكومة الفرنسية التخفيف من حجم الضرائب المدفوعة من قبل الاشخاص ذوي الكفاءات العلمية العالية، حتى تشجعهم على الاقامة بأراضيها سواء أبناء البلد أو الاجانب وخاصة أجيال الفرنسيين المزدادين بالاراضي الفرنسية.

ولا يعود سبب هيمنة الولايات المتحدة الامريكية على سوق الادمغة في العالم إلى سياستها المنفتحة والمرنة فقط، ولكن إلى التوفر الهائل لفرص الشغل الملائمة لتخصصات هذه الطاقات وخاصة صناعة "البحث العلمي والطبي والفضائي"، مدعومة بالاستثمارات المادية المليارية في هذا المجال من قبل الهيآت الصناعية والتجارية العمومية والخاصة.

ويبقي التأكيد على أن البلدان الأكثر تضررا من هجرة أو هروب"الادمغة" هي بلدان الجنوب النامية، التي لا تستطيع منح هاته الكفاءات العلمية الهائلة المناخ والفضاء الملائمين لممارسة مهامها، وهذا ما دفع بالبنك العالمي إلى سن 200 مخطط مشروع قوانين لمحاولة التقليل أو حتى منع من هجرة "الادمغة" ودفعها إلى العودة إلى وطنها الام للمساهمة في تطوره.

سناء موطال

ترجمة عن مجلة "تريبون" الصادرة عن المدرسة العليا للكهرباء والميكانيك